التجديد في دراسة علم السيرة النبوية في ضوء السنن الإلهية

معالم ومرتكزات

د. رشيد كُهُوس*

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، خالق الخلائق أجمعين، والصلاة والسلام على النبيِّ الأزهر، والحبيبِ الأعظم، والسِّرِّ الأنور، الذي وَصَلَ النورَ بين الأرض والسماء، وجعله اللهُ مِرْآةَ رحمتِهِ التي ينهل منها الأولياءُ والأنبياء، صلاةً ما انتهتْ إلَّا بَدَأَتْ، وعلى آلِهِ وصحبه وسَلَّمْ تسليمًا كثيرًا. أما بعد؛

فتعتبر السيرة النبوية العطرة تجسيدا حيا لقيم الإسلام والفضيلة، ومصدرا مهما للفكر الإسلامي، وعاملا رئيسا في صياغة أخلاق المجتمع وقيمه وتصوراته، وتفسيرا تطبيقيا للقرآن الكريم، وأنموذجا بارزا للحياة الإسلامية، ومثلا يحتذى في تحرير الإنسان من العبودية لغير الله تعالى، ومفتاح فهم الشريعة الإسلامية عقيدة وسياسة وتربية وجهادا ودعوة ودولة وأمة وفكرا وثقافة.

والسيرة النبوية ليست مجرد أحداث غابرة أو وقائع مضت، وإنما هي تسجيل دقيق لحياة سيدنا رسول الله ﷺ الذي اصطفاه الله من بريته وجعله حجة على الناس جميعا إلى يوم القيامة، فضلا عما تزخر به من تطبيقات حية وأمثلة

* جامعة القرويين، المغرب.

واقعية لقضايا تتعلق برعاية مقاصد الشريعة ومطالبها والحكم التشريعية.

وإن أهم ما ميز السيرة النبوية أنها تحكمها مقاييس غير بشرية، فالوحي مصدرها، والله الذي يوحي بها، فهي خاضعة لمنطق الوحي الإلهي السماوي.

ولا ينكر أحد ما حظيت به السيرة النبوية من التوثيق الأدائي والكتابي، في أقصى درجة من التوثيق والضبط، ويعتبر القرآن الكريم والسنة النبوية من أهم مصادر السيرة العطرة، فضلا عما جاء في الكتب التي تفردت بالتأليف فيها بمؤلفات مستقلة، أو ضمن أبواب مصنفاتها.

وإن الأمة في أشد الحاجة في كل فترة من فترات التاريخ إلى إعادة قراءة السيرة النبوية ودراستها لتصحح مسارها وسلوكها وتسير على منهاج مستقيم، حتى تجسد قيم الإسلام بصدق، وحتى تتخلص من ربقة الاستكبار والاستدمار والاستعباد والتبعية، لتكون من جديد خير أمة أخرجت للناس.

كما أنها في حاجة إلى التجديد في دراسة السيرة النبوية بما يحقق مقاصدها وحكمها، في نشر الخير والفضيلة، والهدى والإصلاح، وبما يعود على الأمة بالنفع العظيم والخير العميم في مسيرتها العمرانية في الحاضر والمستقبل.

وإن الرؤية السننية الشمولية المتكاملة تعيد للسيرة النبوية أهميتها في الحياة والرقي بالفرد والمجتمع والأمة والدولة، لكون هذه السيرة الخالدة الساحة الفعلية التي تمثلت فيها حقائق القرآن والسنة في أبعادها التربوية والتعليمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعمرانية.

ولقد أدرك من سبقنا بالإيمان المكانة السامقة للسيرة النبوية في الحياة، والاستفادة من دروسها وعبرها وسننها، فلازموها تعليما وتعلما، وتطبيقا وعملا، ومنهاجا في الحياة.

يقولُ عليُّ بن الحسينِ زين العابدين -رحمهما الله-: «كنَّا نعلِّم مغازي رسول الله ﷺ كما نعلِّم السُّورةَ من القرآن»[1]. وكان إسماعيل بن محمد بن سعد

1- البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر الدمشقي القرشي، مكتبة دار المعارف، بيروت، ط3، =

بن أبي وقّاص يحفِّظ أبناءه مغازي رسول الله ﷺ ويعدّها عليهم، ويقول: « هذه مآثر آبائكم فلا تضيِّعوا ذكرَها »[2].

وإن الأمة المحمدية اليوم في أمس الحاجة إلى دراسة السيرة النبوية والاعتزاز بها، والأخذ بما فيها من سنن الله المطردة؛ لترتفع إلى مكان السيادة والقيادة، وتتحمَّل مسئولية تبليغ رسالة الإسلام وأخلاقه وتعاليمه وخصاله إلى البشرية جمعاء، ليعود كل الناس إلى الصِّراط المستقيم، وتكون خير أمَّة أخرجت للناس -في تمثل سيرة نبيها ﷺ وسنن الله فيها- كما قال رب العزة جل وعلا: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: 110].

فهل في السيرة النبوية والأيام المحمدية الخالدة رؤية معرفية سننية مركزية كلية ومتكاملة لتفسير حركة التاريخ وفاعلية الإنسان فيه والتحولات الحضارية الدائبة؟ وهل آن الأوان أن نتعامل مع السيرة النبوية العطرة بوعي وبمنهجية دقيقة تفيد الأمة وتكشف عنها الغمة وترفعها إلى القمة؟ متى تستعيد السيرة النبوية مهمتها ووظيفتها في صناعة القاعدة الصلبة والأنموذج الفريد الصالح للنهضة ومواصلة دور الريادة على سائر المستويات؟ متى تصحح الأمة علاقتها بسيرة نبيها ﷺ وتدرك بصدق أنها أساس العيشة الهنية والسعادة الخالدة والتنمية البشرية وبناء الإنسان والعمران؟

هذا ما سيجيب عنه هذا البحث من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: تعريف السنن الربانية ومميزاتها وأثر مراعاتها.

المبحث الثاني: تعريف السيرة النبوية ومقاصد دراستها.

المبحث الثالث: مناظير دراسة السيرة النبوية.

المبحث الرابع: معالم المنهاج السنني لدراسة السيرة النبوية.

المبحث الخامس: أثر القراءة تطبيقات عملية للسنن الربانية في السيرة النبوية.

= 1980م 424/3.

2- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1403 هـ 195/2.

والله أسأل التوفيق والسداد والرشاد فهو الهادي إلى سواء السبيل والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول: تعريف السنن الإلهية وأهميتها ومقاصد دراستها

1. تعريف السنن الربانية

أ. لفظة السنة في اللغة

تستعمل لفظة (سنة) للدلالة على الطريقة والسيرة والنهج وغير ذلك من المعاني، وقد ذكر صاحب مختار الصحاح أن السنة هي السيرة وأن السنن هو الطريقة، ومنه يقال استقام فلان على سنن واحد، ويقال امض على سنتك[3]. وفي لسان العرب: سَنَّ اللَّه سُنَّةً أَي بَيَّن طريقاً قويماً ... والسُّنَّة السيرة حسنة كانت أَو قبيحة، قال خالد ابن عُتْبة الهذلي:

فلا تَجْزَعَنْ من سِيرةٍ أَنتَ سِرْتَها فأَوَّلُ راضٍ سُنَّةً من يَسِيرُها

وإذا أُطْلِقَت لفظة (السنة) في الشرع فإنما يراد بها ما أَمَرَ به النبيُّ ﷺ ونَهى عنه ونَدَبَ إِليه قولاً وفعلاً مما لم يَنْطق به الكَتاب[4]

وقال الفيروزآبادي في معنى السنة: «والأصل فيها الطريقة والسيرة، ومنه قول النبي ﷺ «من سن سنة حسنة»[5] أي طريقة حسنة، وسنة النبي ﷺ طريقته التي كان يتحراها»[6].

3- مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط5: 1420هـ -1999م، 155/1.

4- لسان العرب، أبو الفضل محمد بن المكرم ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط3: 1414هـ، 225/13.

5- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق ثمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، الحديث 69، وكتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، الحديث 15.

6- بصائر ذوي التمييز من لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء =

وملخص هذه التعريفات اللغوية أن السنة هي: الطريقة والخطة والسيرة والنهج والطريقة المتبعة.

ب. السنن الإلهية اصطلاحا

يعرف الشهيد سيد قطب رحمه الله السنن الإلهية أنها: «النواميس التي تحكم حياة البشر وفق مشيئة الله الطليقة، وأن ما وقع منها في الماضي يقع في الحاضر إذا أصبحت حال الحاضرين مثل حال السابقين»[7].

ويعرفها الأستاذ محمد هيشور أنها: «مجموعة من القوانين التي يسير وفقها الوجود كله وتتحرك بمقتضاها الحياة، وتحكم جزئياتها ومفرداتها فلا يشذ عنها مخلوق وما في الكون ذرة أو حركة إلا ولها قانون وسنة فكل الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات ... إلا وله قانون، وما من كوكب أو نجم إلا وله قانون لا إرادي ولا ذاتي يسير وفقه، وما من حركة نفسية أو اجتماعية أو نقلة حضارية إلا ولها قانون أيضاً يتجلى في الأسباب والعوامل المؤدية إليها، وسلبت الإرادة من كل الكائنات المخلوقة إلا الإنسان، ولذلك كان هو وحده المطالب بالبحث عن هذه السنن ومعرفتها في الحياة المبثوثة فيها بمثابة الأسرار والألغاز للاضطلاع بأعمار الأرض وأعباء الاستخلاف»[8].

ويعرفها العلامة يوسف القرضاوي: هي «القوانين التي أقام الله عليها نظام الكون ونظام المجتمع، وهي سنن وقوانين لها صفة العموم والشمول، كما أن لها صفة الثبات والدوام»[9].

ويعرفها الشيخ محمد بن معمر جابري أنها: «عبارة عن العهود التي عهد الله بها إلى كل شيء في هذا الوجود؛ ليندرج الكل في انسجام ووئام، والله تعالى وفِيٌّ

= التراث الإسلامي، القاهرة، 267/3.

7- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، 480/1.

8- سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية، القاهرة، ط1، 1417هـ-1996م، ص 27.

9- العقل والعلم في القرآن الكريم، يوسف القرضاوي، القاهرة، مكتبة وهبة، ط: 1416هـ-1996م، ص 279.

إذا وعد، ورحيم إذا توعَّد»[10].

وهي كذلك «أقدار الله وعهوده الثابتة ووعوده الحقة، وكلماته التامات، التي لا تبديل لها ولا تحويل يعتريها ولا تغيير يشملها، لا تحابي أحدا مؤمنا كان أم كافرا»[11].

وخلاصة القول: السنن الإلهية هي: الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر -بناء على سلوكهم وتصرفاتهم وأفعالهم-، والنظام الذي أقام عليه الكون والحياة، والقوانين التي بثها في هذا الوجود وأخضع لها جميع مخلوقاته، وهي تتصف بصفة الربانية والعموم والشمول والثبات والاطراد والانتظام.

2. أهمية السنن الإلهية

إن الحديث عن السنن الإلهية يعد منارة للمسلم اليوم في ظلمات هذا العصر بما فيه من تعقيدات ومعضلات، يكون فيها المسلم حيراناً، غير أن المسلم الواعي الذي يتعهد كتاب ربه بالقراءة والعناية والتدبر والفهم هو وحده الوحيد القادر على أن يكون واعياً ومستوعباً لكل ما يجري في هذا الكون من أحداث[12].

ولقد أدى إغفال السنن وعدم فقهها في ميدان الدراسات الحضارية في واقع المسلمين الحالي إلى ضياع طاقات كثيرة بذلها مفكرون ومربون إسلاميون عظام، وذهب الكثير منها سدى في ظل مشكلة الإنسان المسلم صاحب المنهج الفقيه بسنن التحضر، الخبير بربط عناصر الكون وطاقاته المعنوية بالحياة الاجتماعية

10- في حوار له حول السنن الإلهية في القرآن الكريم، حاوره: رشيد كهوس، مجلة الفرقان، الأردن الأردنية، العدد 63، ربيع الأول 1428 نيسان 2002.

11- السنن الإلهية في السيرة النبوية، أبو اليسر رشيد كهوس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص: 53.

12- مجلة المنارة للبحوث والدراسات، المجلد 15، العدد 2، (2009م)، بحث (السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل)، للدكتور عماد عبد الكريم خصاوونة، خضر إبراهيم قزق، رقم البحث (1527)، ص215.

لخدمة الإنسان[13].

فلا جرم أن فقه السنن الإلهية من فقه الدين، ورعايتها حفظٌ للدين؛ لأنها أساس الاستبصار في إقامة نظام العمران وصلاح أحوال المعاش والناس.

ولذلك صار من أوجب الواجبات العنايةُ بهذا العلم وإيضاحه للأمة ليحصل لها ما أمر الله به من النظر والتدبر، والعمل على مقتضى تلك السنن.

ثم إن العلم بالسنن الإلهية ليس بِدْعا من العلوم، بل أصلُه في القرآن الكريم والسنة النبوية، وعمَلِ الصحابة الكرام رضي الله عنهم؛ فقد كان الرعيل الأول لا يخرج عن منهاج السَنن وسبيلها في كل أمر من أمور الدنيا والدين.

ومن ثم فإن التعامل مع السنن الإلهية على أساس الوعي أمر يشمل المؤمنين والكافرين، وإن الفقه لسنن الله تعالى يعطي النتائج حتى للكافرين، والنظر إلى الموضوع بهذه الصورة يبين خطورة أن يبقى في المجتمع أعداد مهما كانوا قلة لا يتمتعون بالوعي التام لقضايا المجتمع، وفي حده الأدنى خطورة عدم وجود العدد الكافي من الذين يعينون الأمور على هذا الأساس من النظر[14].

إن الاستفادة من السنن وملاحظة الأمثلة والأحداث تقدم بصراً ومعرفة نظرية وعملية، حتى لا يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم، أو تنقذهم إذا وقعوا فيها، أو على أقل تقدير تكسبهم صلابة موقف من يدرك السنة؛ لأن موقف من يرى السنن يختلف عن نظر وموقف من يجهل مصدر الأحداث.

فإن حيرة وخوف من يجهل غير بصيرة من يعلم، وغير طمأنينته، فإن من يجهل يطمئن حيث لا طمأنينة ويقلق حيث لا قلق ويعيش في حيرة من جراء المصائب التي تنزل به ولا يعرف مأتاها إلا ظناً وتخرصاً، أما من يعلم وإن كان يعجز عن تغيير كل شيء مرة واحدة، فإنه يعرف أين يضع القلق، وأين يضع

13- سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، محمد الصادق عرجون، الدار السعودية، جدة، (د. ت)، ص27.

14- حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، دار الثقافة للجميع، دمشق، سوريا، ط3: 1395هـ 1975م، ص62.

الطمأنينة ولا يصاب بالحيرة، ولا يطمع في إزالة الجبال في ساعة، ولا يحقر من جهده القليل الذي يبذله مما يقرب إلى الهدف، فمن يمشي على الخريطة والبوصلة، لا كمن يمشي يضرب في تيه الأرض دون معرفة.

إن إدراك السنن والتعامل معها، هو الذي يجعل الإنسان يمشي سوياً على الأرض، ومن يجهلها فهو المكب[15] ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: 22].

يقول الإمام المجدد حسن البنا -رحمه الله-: «لا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد»[16].

3. مقاصد دراسة السنن الربانية

يزخر القرآن الكريم بالكثير الكثير من السنن الإلهية في العديد من سوره وآياته، داعيا المسلمين إلى تدبرها والنظر فيها، والكشف عن أسرارها للفوز بأكبر قدر من المنفعة المختزنة فيه، والنجاة من أصغر آفة تكمن فيه، وإدراكها بوجه يؤدي إلى حسن الاستفادة منها للانتفاع من أحوال السابقين بما حاق بهم من سقوط أو فناء بما كسبت أيديهم.

يقول حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي -رحمه الله-: «وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله، وسنته في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب، فإنه البحر الذي لا يدرك غوره وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يسر لهم، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون في العلم»[17].

15- حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص137-138.

16- انظر: مجموعة الرسائل، رسالة المؤتمر الخامس ص115.

17- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد الغزالي، دار قتيبة، دمشق، 42/1.

ويقول الإمام محمد عبده -رحمه الله-: إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علمًا من العلوم المدونة لتستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أجمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون بها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال ... والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحمل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم؛ إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها[18].

وعليه، فإن عناية القرآن الكريم بالسنن الإلهية وتنبيه الأنظار والعقول إليها، لم يكن لمجرد التسلي والاطلاع على سنن السابقين وقوانين الله في الحياة والكون التي أخضع الله لها جميع مخلوقاته، بل إن لذكر تلك السنن الربانية مقاصد جمة وحكما جليلة وأهدافا متنوعة، يمكن إجمالها فيما يلي:

1. **تسلية لرسول الله ﷺ وتثبيتا لقلبه وقلوب المؤمنين:** قال الله عز اسمه وتقدست كلماته: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: 120]، ففي ذكر سنن الله في الأمم والجماعات والأفراد تسلية للنبي ﷺ وأصحابه وأتباعه من بعده، حتى يصبروا على الابتلاء والأذى كما صبر من سبقهم بالإيمان من أتباع الأنبياء والمرسلين حتى أتاهم نصر الله وتحقق لهم سنن الاستخلاف والتمكين، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: 34]، وقال عز من قائل: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: 5].

2. **إثبات صدق نبوة رسول الله ﷺ ورسالته:** لأن دعوة أنبياء الله ورسله واحدة ومنهاجهم واحد، وعقيدتهم واحدة ... ولهذا فالنبي ﷺ في دعوته ورسالته ليس بدعا من الرسل وإنما رسول من رب العالمين، قال الله جل جلاله: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

18- تفسير المنار، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار. السيد رشيد رضا، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1973م، 4/114-115.

[الأحقاف: 9]، وبنزول القرآن عليه بسنن الله في السابقين وأخبارهم لأكبر دليل على صدق نبوته ورسالته، قال الحق جل وعلا: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: 49]؛ «لأن النبي ﷺ كان أميا لم يختلف إلى مؤدب ولا معلم، ولا فارق وطنه مدة يمكنه الانقطاع فيها إلى عالم يأخذ ذلك عنه، فإذا علم بها وتدبر العاقل من قومه ذلك؛ علم أنه بوحي من الله سبحانه وتعالى، فآمن به وصدقه وكان ذلك من المعجزات الدالة على صدق نبوته، وقد يُنكر ويجحد حسدا وعنادا»[19].

3. **السير على منهاج السنن الإلهية وعدم تنكبها**: إن إلحاح القرآن الكريم على الأمر بالسير في الأرض، لا لمجرد التسلي والوقوف على مصارع الأقوام الغابرة، والنظر في عاقبة المكذبين على مدار التاريخ، ولكن للاعتبار، وتجنب أسباب الهلاك التي وقعوا فيها، واكتشاف سنن الله التي لا تتعطل ولا تنخرم في التاريخ حتى لا تسقط الأمة فيما سقطوا فيه وتحصدها عجلة السنن كما حصدت من قبلها.

فالتاريخ يعيد نفسه، وتظهر فيه سنن الله جلية لاحبة. ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة: 70]. فأحداث التاريخ تتكرر، وسنة الله ثابتة مطردة على مدار التاريخ.

فكان لزاما على المؤمنين تدبر السنن الإلهية ومعرفتها والسير وفق مقتضياتها لتحفظ الأمة كيانها من معاول الهدم، وتقي نفسها من السقوط والانهيار، والله تبارك وتعالى أرشدنا في محكم التنزيل «إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة ... والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة، والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ثم الفناء

19- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، محمد السخاوي، دار الكتاب العربي، بيروت: 1399هـ-1979م، ص14.

لعدولهم عن سنة العدل وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة»[20].

هذا علاوة على أن أفضل الفوائد والفرائد وأهم مقاصد الفقه السنني هو تنبيه الناس على سنن الله -تعالى- في نشوء المجتمعات واندثارها، وتأثير أعمال الخير والشر فيها، ومطالعة أمر الله في أحوال الكافرين وسنته المطردة التي لا تتعطل، والوقوف على سنن الله تعالى التي تحكم التَّجمع الإنساني.

4. **تعظيم لله تبارك وتعالى**: وذلك بالوقوف على سننه التي حث على السير على منهاجها في كتابه العزيز، والاطلاع على قوانينه ونظامه الذي أقام عليه الكون والحياة، لنستشف بأن سنن الله تعالى في الكون والحياة لا مجال للصدفة وأن الأمور لا تمضي جزافاً، ليمتلئ القلب إجلالاً وتعظيما وتوقيراً للواحد الأحد الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت.

5. **تثبيت عقيدة الإيمان وإبطال العقائد الفاسدة والضالة**: وذلك من خلال الإيمان بالله تعالى وتوحيده في ألوهيته وربوبيته وخالقيته وصفاته، والإيمان بالبعث والنشور، وبكل أنبياء الله ورسله وملائكته وكتبه، وقضائه وقدره، وإبطال عقائد الجبرية والخرافية والاستسلامية، إذ تؤكد السنن الإلهية أن الأحداث وكل ما يقع في الحياة الإنسانية والكون لا يخرج ذلك عن القوانين الإلهية التي بثها الله تعالى في الوجود، فلا عبثية فيها ولا صدفة ولا عفوية ولا عشوائية ولا فوضى ولا ارتجالية، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49].

6. **الاطمئنان والاتزان**: إن من خصائص السنن الربانية، العموم والشمول، والثبات والاطراد، والانتظام والتسخير، والوقوع وعدم التخلف؛ لأنها تقتبس نورها من مشكاة إلهية ربانية، لتبعث الطمأنينة والراحة، والشعور بالأمن، والراحة في حركة المسلم وسلوكه، ليتصرف باطمئنان ويتحرك باتزان، ويعرف مواطن الثقة ومواطن القلق، فلا شك أنها «تُثبت النفس وتطمئن ويحيطها الاستقرار، الذي يكون توطئة لمعرفة ما لكل امرئ وما عليه، فيعتبر المُبصر ويحذر

20- العروة الوثقى، جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1403هـ-1983م، ص: 171.

المخطئ، ويتحسس كل إنسان أين تسير به قدماه فيُحْجمُ أو يُقْدم مستندا إلى ظنه لمصيره ومآله في دنياه وأخراه»[21]، وحتى يطمئن المؤمنون بين لنا القرآن الكريم في أكثر من موضع ثبات هذه السنن ونفاذها وعدم تبدلها أو تحولها، إنها موجودة أساسا في صميم التركيب الكوني، وفي قلب العلاقات المتبادلة بين الإنسان والعالم[22].

ولذلك فإن الاطمئنان والاتزان الذي ينشأ عن كشف السنن والإيمان بثباتها واطرادها، يشكل عاملا مهما في حركة الفرد نحو الإصلاح، وفي ممارسة دوره في عمارة الأرض، دون قلق أو وجل يقعد به ويستهلك فكره وطاقته في تحفز وخوف من مصيبة أو كارثة تفاجئه إنه يعيش بأنس مع نواميس الكون يؤدي دوره ويرضى بقضاء الله وقدره[23].

7. **القدرة على تفسير الأحداث وفهم التاريخ**: إنا من خلال السنن الربانية في القرآن الكريم والسنة النبوية نفهم التاريخ على حقيقته، ونعرف عوامل البناء والأمن والاستقرار والتقدم، وعوامل الهدم والخوف والانحطاط والتخلف، على أن هذه السنن مرتبطة بالأمر والنهي، والطاعة والمعصية، والإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، فالإنسان إذًا أتى بالأمر واجتنب النهي، ووقف عند حدود الله، أصاب خير السنة الربانية، إذا أهمل الأمر وخالفه، وارتكب النهي عنه، ووقع في حدود الله، أصاب شر السنة الربانية[24].

هذا فضلا عن معرفة حركة التاريخ ورصد صفحات النصر والهزيمة والنجاح والفضل فيه، والبحث في الوسائل التي أوصلت المسلمين -على مدار

21- السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم، أصول وضوابط، مجدي محمد عاشور، إشراف مصطفى الشكعة، تقديم: علي جمعة، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، 1427هـ-2006م، ص: 100.

22- حول إعادة تشكيل العقل السليم، عماد الدين خليل، عماد الدين خليل، سلسلة كتاب الأمة (4)، قطر، ط1: 1402هـ ص: 53.

23- السنن الإلهية حقيقتها وإدراكها في ضوء القرآن الكريم، ذو الكفل بن الحاج إسماعيل، ص: 87.

24- كيف تفسر التاريخ، السلمي محمد بن صامل، مجلة البيان، العدد 50، سنة 1992، ص98.

التاريخ- إلى تلك المواطن والنتائج الشامخة، والتمعن في أسباب الانكسارات والهزائم والمصائب التي حلت بأمة المسلمين -من لدن آدم إلى يومنا هذا-، وتكالب الأعداء واتفاقهم على الكيد والنيل من المسلمين في كل أصقاعهم، ولا سيما في هذا العصر، وأسباب انتصار الآخرين وازدهارهم وتقدم وتخلف المسلمين[25].

8. **استدامة الهداية والموعظة لسنن السابقين بالتدبر والنظر**، والتفكر والسير في الأرض واستخلاص العبر، واستجلاء العظات لبناء مجتمعات مؤمنة سليمة، قوية وعادلة، بتبيان طريق الحق ومآله وطريق الضلال ومآله، والاطمئنان إلى وعد الله تعالى بنصر المؤمنين الصادقين والمستضعفين، لأن الأمور لا تمضي في الناس جزافًا؛ والحياة لا تجري في الأرض عبثًا. يقول الله جل وعلا: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء: 26].

9. **بيان الآثار الحميدة والنتائج المفيدة والأكيدة**؛ للتمسك بالإسلام على سير الحياة من كل جوانبها، والآثار المهلكة والنتائج المبيرة للبعد عن الإسلام وأخلاقه وإهمال تعاليمه، وذلك على مستوى الأفراد والجماعات والأمم وفي جوانب الحياة كلها[26]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 85]

10. **تقويم سلوك الأفراد والجماعات وأخلاقهم**: وهذا واضح وجلي من خلال معالجة كل نبي ورسول لصفة معينة في قومه كان يسعى لإصلاحها، كما سعى نبي الله لوط عليه السلام لإصلاح ما وقع فيه قومه من الفواحش والرذائل الدنيئة، وسعى نبي الله شعيب لإصلاح خلق قومه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا

25- الموقف من التاريخ الإسلامي وتأصيل الهوية، حامد محمد الخليفة، دار القلم، دمشق، ط1: 1426هـ-2005م، ص28-29.

26- الموقف من التاريخ الإسلامي وتأصيل الهوية، حامد محمد الخليفة، ص28.

نُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [الأعراف: 85-86]. وكما سعى كل الأنبياء والرسل لإصلاح أقوامهم، ففي هذه السنن الإلهية عبرا وعظة ودروسا بارزة لهذه الأمة، حتى لا تقع فيما وقع فيه أولئك فيحيق عليها العذاب الآجل والعاجل.

هذا، إضافة إلى أن السنن الإلهية سيقت لأغراض شرعية بحتة كما أسلفت؛ وقد تناولت -إضافة إلى ما ذكرت- عددا وفيرا من الأغراض؛ كإثبات الوحي والرسالة، وإثبات وحدانية الله، وأن الدين عند الله الإسلام منذ خلق آدم إلى يوم القيامة، وأن الأنبياء جميعا يدعون إلى دين واحد وغاية واحدة، وإثبات شناعة الشرك والمعاصي، ومعاقبة الله تعالى عليها، والإيمان بنصر الله تعالى وتأييده لعباده الصادقين المؤمنين به وبرسالته ورسله، وانتهاج الأسوة الحسنة في الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، والتجمل بمكارم الأخلاق ومحاسن الخصال، وتعلم آداب الحوار، والجدال بالتي هي أحسن، وأساليب الدعوة إلى الله تعالى وإلى دينه، وتشخيص أمراض المنحرفين والمعاندين وكيفية معالجتها ... ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾ [سورة ق: 37].

المبحث الثاني: تعريف السيرة النبوية ومقاصد دراستها

أولاً: تعريف السيرة النبوية

السيرة في اللغة: السنة والطريقة، قال الشاعر:

فلاَ تَغْضَبَنْ من سُنَّة أَنتَ سِرْتَها ... فأَوَّلُ راضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُهَا

وتعني السيرة كذلك الهيئة والحالة. وفي التنزيل: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ [طه: 21]، وسَيَّر سِيرة: حدَّث أحاديث الأوائل[27].

27- لسان العرب، لابن منظور، 389/4.

والسيرة في الاصطلاح: عرفت بتعريف موافق لتعريف السنة أي: «ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خِلْقي أو خُلُقِي».

والتعريف الآخر: -وهو ينطبق على هذا العِلْم- «علم يعرف به أحوال النبي ﷺ منذ ولادته ونشأته إلى وفاته ﷺ».

وبمعنى آخر: «هي السجل الدقيق الكامل لحياة سيدنا رسول الله ﷺ، من مولده يوم الاثنين 12 ربيع النبوي عام الفيل (570ميلادية)، إلى التحاقه بالرفيق الأعلى يوم الاثنين 12 ربيع الأول 11 هجرية وفق 6 حزيران 632م».

وبتعبير آخر: السيرة النبوية هي: «مجموع وقائع الحياة اليومية لخير البرية ﷺ، من قَبل ولادته (بما يشمل نسبه، وأجداده، وما جرى قبل ولادته من إرهاصات وأحداث ذات صلة بولادته)، وأثناء ولادته (ما جرى خلالها من معجزات) وبعدها (معجزاته وحفظ الله له في شبابه إلى تجارته وزواجه، وما عرف به من أخلاق قبل بعثته) إلى نزول الوحي عليه وبداية دعوته ومن آمن به ومن عاداه، وهجرته وغزواته وسراياه وبعوثه ورسائله إلى ملوك وأمراء عصره إلى وفاته ﷺ، مضافا إليها صفاته الخُلقية والخِلقية وخصائصه وأعلام نبوته».

والسيرة النبوية العطرة قسم من الحديث النبوي باعتبارين اثنين:
أولهما: أننا ننسبها إلى سيدنا رسول الله ﷺ وهو المشرع.
وآخرهما: روايتها بالأسانيد المتصلة إلى سيدنا رسول الله ﷺ، ولهذا أفرد لها علماء الحديث الشريف كتباً وأبواباً في مصنفاتهم في سيرة رسول الله ﷺ ومغازيه وجهاده وشمائله ودلائل نبوته.

والسيرة النبوية جزء من التاريخ باعتبار أحداثها ووقائعها وقصصها.

ثانياً: مقاصد دراسة السيرة النبوية

إن لدراسة السيرة النبوية العطرة مقاصد نبيلة وحكما جليلة وأغراضا متعددة، وفوائد جمة، ومنافع عاجلة وآجلة؛ وأهمية كبيرة في حياة المسلمين. أجمل أهم هذه المقاصد التي يرجى تحققها ويُسعى إلى تحصيلها في الدُّنيا والآخرة في الآتي:

1. **تحقيق الشَّهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ)**: إن الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) هي الرُّكنُ الأعظمُ من أركان الإسلام، وأول عتبة للدخول في حصنه، والانتماء إلى أمته، فبدراسة السيرة النبوية العطرة يحقق المرء الشهادتين؛ يحقق الشطر الأول منها (لا إله إلا الله) بتوحيد الله تعالى في أسمائه وصفاته وألوهيته وربوبيته وخالقيته، وعبادته وطاعته ... وهذا ما تدور عليه أحداث السيرة النبوية جملة وتفصيلا، ويحقق الشطر الثاني منها (محمد رسول الله)، بتصديقه فيما أخبر به عن ربه من الوحي المنزل عليه، بإفراد الله بالوحدانية، وبالإيمان بجميع الأنبياء والرسل، والكتب المنزلة، والملائكة، والموت والبعث والنشور، والجنة والنار، وغير ذلك من الأمور الغيبيَّة والحوادث المستقبلية التي أخبر بها.

ثم بالاستجابة لدعوته، وطاعته والتسليم التام له، والاحتكام إلى شرعه، وعدم التَّقدُّم بين يديه، والانقياد لأمره، وتطبيق ذلك في واقع الحياة بجميع نواحيها السِّياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والثقافية ... واجتنابُ ما نهى عنه وزجر من الصغائر والكبائر والمحرمات.

2. **زيادة محبة سيدنا رسول الله ﷺ**: لا يخفى على أحد أن محبة سيدنا رسول الله ﷺ فرض في القرآن الكريم والحديث النبوي وإجماع علماء الأمة، فلازم ذلك معرفة سيرته ﷺ؛ فالتعرف على سيرته سبيل إلى محبته والتخلق بأخلاقه.

فمحبة رسول الله ﷺ هي العروة الوثقى والمنزلة العظمى، وقرة العيون ومنبع السرور، وسبب الانشراح والأفراح: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب: 6]: أي طاعته ﷺ أولى من طاعة أنفسهم، واتباعه أولى من اتباع أهوائهم، ومحبته أولى من محبة أنفسهم فبالأحرى أموالهم وأولادهم. عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده»[28].

وعن عبد الله بن هشام ﷺ قال: «كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن

28- صحيح الإمام البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول الله ﷺ من الإيمان، ح14.

الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر »[29].

وعن أنس رضي الله عنه: « أن رجلا سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال متى الساعة؟ قال: وماذا أعددت لها. قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ فقال: أنت مع من أحببت. قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت. قال أنس فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم »[30].

إن محبته ﷺ مَجْلاة للقلوب من الصدأ والكسل، ومَدْعاة لتحريك الهمة للجد والعمل، وهي عماد الدين، وباب النصر والتمكين، لولاها لما استقام البناء على وجه الأرض لحظات، ولا عمتنا البركة من السماوات، إنها السبيل الذي يخرجنا من ذلك المستنقع الآسن، والدرك الهابط، والظلام البهيم، السبيل الموصل إلى جنات النعيم.

ولذلك فإن دراسة سيرته ﷺ تزيدنا حبا له وإيماننا به وشوقا إليه وتعلقا بشخصه الكريم العظيم. كيف لا وهو الذي قال فيه الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]، وقال سبحانه وتعالى واصفاً نبيه وحبيبه ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

3. **الوقوف على سنن الله في حياة رسول الله ﷺ**: إن من أهم مقاصد في دراسة السِّيرة النَّبويَّة وقصصها الوقوف على سنن الله تعالى في أمور رسول الله ﷺ اليومية، وأخذ الدروس منها والاعتبار بها، والسير على منهاجها وعدم تنكبها أو الحيدان عن سكتها ... وصدق الله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ

29- صحيح الإمام البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين رسول الله ﷺ، ح6257.

30- صحيح الإمام البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين رسول الله ﷺ، ح6257.

مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111].

هذه السنن الإلهية التي نتوقف عليها أثناء دراستنا للسيرة ثابتة ومطردة يمكن أن تتكرر ظروفها في كل زمان ومكان، وحين تجرد من قيود الزمان والمكان لتجيب عن أسئلة العصر ومعضلاته؛ إذ من خلالها نقدم العلاج الشامل لمجموعة من الأدواء التي أصابت الأمة المسلمة، بل من خلال السير على المنهاج المحمدي في التربية والدعوة والجهاد تحقق الأمة عزتها وتعود لها مكانتها، ويتحقق وعد الله عز وجل وموعود نبيه المصطفى ﷺ بانتشار نور الإسلام في العالمين.

فالسيرة النبوية تجسيدٌ حيٌّ للرِّسالة السماوية وبيانٌ عمليٌّ للقرآن الكريم وتنزيله على واقع التَّأسِّي في كلِّ مرحلة من المراحل التي مرَّت بها الرِّسالة النَّبويَّة.

وأهم السنن الإلهية في السيرة النبوية: سنة الله في التغيير (تغيير النفس والمجتمع)، وسنة الله فيمن تمسك بأحكام الإسلام وتعاليم القرآن في المظهر والمخبر، إضافة إلى رصد صفحات النصر والهزيمة في تاريخنا المجيد فضلا عن معرفة المنهاج النبوي في الدعوة إلى الله تعالى وبناء الأمة بعد بناء القلوب.

4. **التأسي برسول الله ﷺ والاقتداء به:** إن الاقتداء بسيدنا رسول الله ﷺ يقتضي معرفة سيرته العطرة وشمائله الكريمة وأخلاقه وأحواله ومعاملته ... لذا صار من أوجب الواجبات الاطلاع على سيرته للاقتداء به عملا بقوله عز اسمه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: 21]، والاقتداء به ﷺ ترجمة حقيقة لمحبته ودليل على محبة العبد لله عز وجل لقوله جل ثناؤه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: 31]، والاقتداء به ﷺ واتباعه وطاعته سبب الهداية والفوز والنجاة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: 54].

وكيف يحب المرء رسول الله ﷺ وهو يجهل أوصافه وأحواله وأعماله

وأقواله وتقريراته! وكيف يقتدي به وهو يعرف لا شيئا عن سيرته وهديه ومنهاجه! من هنا تأتي أهمية شرح السيرة النبوية لتوضيح صفاته وأحواله وأخلاقه ﷺ، ليعرفها من جهل فيحب ويتبع.

ففي السيرة النبوية نماذج حية للقادة العظماء، والزهاد، والتجار الناجحين المخلصين الأتقياء، وفي السيرة أفضل النماذج للمربِّين والدعاة؛ فالداعية يقتدي برسول الله ﷺ في دعوته ويجد في سيرة رسول الله ﷺ أساليب الدعوة ومراحلها وكيفية التعامل مع الناس عامة، والمخطئين خاصة، فقد كان بهم جميعا رءوفًا رحيمًا، حريصًا على هدايتهم الحقِّ، حكيمًا في معالجة مشكلاتهم ومواقفهم المختلفة، حليمًا يَعْذُرُ الجاهلَ منهم حتَّى يتعلَّم. والوقائع الدَّالَّةُ على هذا كثيرةٌ جدًّا؛ منها قصَّةُ الأعرابيّ الذي جذب برداء رسول الله ﷺ حتى أثرت حاشية الرِّداء في صفحة عاتقه ﷺ طالبًا منه أن يعطيَه من مال الله؛ فكان ردُّ رسول الله ﷺ أن نظر إليه بكلِّ هدوء، ثم تبسَّم في وجهه وأمر له بعطاء[31].

ومنها قصَّةُ الشَّابِّ الذي جاء إلى رسول الله ﷺ -فيما رواه عنه أبو أمامة الباهلي- فقال: ائذن لي بالزِّنا. فأقبل القومُ عليه فَزَجروه وقالوا: مه، مه. فقال: «ادنه». فدنا منه قريبًا؛ قال: فجلس، قال: «أَفَتُحبُّه لأمك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبُّونه لأمَّهاتهم»، قال: «أفتحبُّه لأختك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبُّونه لأخواتهم». قال: «أفتحبُّه لعمَّتك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا النَّاس يحبُّونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبَه وطهِّر قلبَه وحصِّن فرجَه». فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[32].

فقد ناقش النَّبيُّ ﷺ هذا الشَّابَّ مناقشةً عقليَّةً منطقيَّةً أحسن التَّصَرُّفَ معه ولم يزجره وينهره رغم الجرأة وسوء الأدب في طلبه، وتدرَّجَ معه في الخطاب

31- أخرجه البخاري في صحيحه حديث رقم 3149 رقم 3149، ومسلم رقم 128.

32- أخرجه الإمام أحمد في مسنده 256/5. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح.

حتى اقتنع وتبيَّن له خطؤه في هذا الطَّلب. وقد تخلق رسول الله ﷺ بأخلاق القرآن وتأدب بآدابه: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: 125].

ومنها: قصَّةُ الأعرابيّ الذي بال في ناحية من المسجد النَّبويّ، فقام إليه الصحابة ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه»[33]؛ أي لا تقطعوا بوله. فكان تَصرُّفَه حكيمًا وبالمخطئ رحيما رفيقا.

ومنها: قصة معاوية بن الحَكَم السَّلميّ الذي تكلَّم في الصَّلاة وهو لا يعرف حكم ذلك، فعلَّمه رسولُ الله ﷺ من غير نهر له ولا تشديد عليه وقال له: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»؛ ممَّا أَثَّرَ في نفس معاويةﷺ فقال في روايته للقصَّة: فبأبي هو وأمي!! ما رأيتُ معلِّمًا قبلَه ولا بعدَه أحسنَ تعليمًا منه؛ فوالله ما نهرني ولا ضربني ولا شتمني[34].

لقد كان حبيبنا رسول الله ﷺ أنموذجا قرآنيا رائعا لأخلاق السماء، وكانت الأمثلة الواقعة في حياته الشريفة ﷺ أعظم مثل وقدوة على أخلاقه العظيمة وحسن معاملته للمحسنين والمخطئين.

ومن سيرته العطرة يتعلم المربي أساليب التربية وتزكية النفس وتهذيبها، ويتعلم منها السياسي كيف كان ﷺ يتعامل مع أشد خصومه السياسيين المنحرفين، كرئيس النفاق ابن أبي ابن سلول الذي أظهر الإسلام وأبطن الكفر والنفاق والحقد والعداوة لرسول الله ﷺ، وكيف كان يدس الدسائس، وينشر الأكاذيب والإشاعات التي تسيء إلى رسول الله ﷺ لتنفير الناس من دعوته والقضاء على الإسلام في مهده، وكيف عامله ﷺ، وصبر عليه وعلى عداواته، حتى ظهرت حقيقته البلجاء للناس فنبذوه جميعًا، ونفر منه حتى أقرب الناس له وكرهوه،

33- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، ح5679. صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره، ح 284.

34- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، ح537. مسند أحمد بن حنبل، 5/447-448.

والتفوا حول الحبيب المصطفى رسول رب العالمين ﷺ.

ويجد القائد في سيرة رسول الله ﷺ منهاجا محكما في الحكم وتخطيطا واضحا في السلم والحرب، ودقة في التنفيذ وقيادة الأمة والجيش والقبائل، وحرصًا شديدا على تطبيق العدل وإقامة دعائم الشورى، ويجد فيها القائد المقاتل خلقا كاملا في معاملة الجند والأمراء والراعي والرعية والأسرى والسبايا.

ويجد فيها كل مسلم بغيته فيها؛ لكونها تشمل تفاصيل الحياة بدقائقها وكلياتها، منذ ولادة رسول الله ﷺ وحتى التحاقه بالرفيق الأعلى، مروراً بمرحلة طفولته ﷺ وشبابه ودعوته وتربيته وجهاده وصبره وتحمله وتؤدته، وهجرته وبنائه للعمران والمجتمع والأمة، وانتصاره على عدوه، وتظهر بوضوح أنه ﷺ كان زوجًا رحيما وأبًا عطوفا، وصديقا وفيا، وقائدًا مجاهدا، وحاكمًا عدلا، وسياسيًا محنكا، ومربيًا حكيما، وداعية وزاهدًا وقاضيًا وراعيا وأمينا ... كيف لا يكون كذلك وهو مسدد بوحي السماء في كل حركاته وسكناته ...!

وبهذا المنهاج القرآني والأخلاق القرآنية استطاع النبي العدنان ﷺ إخراج الأمَّة الأميَّة من ظلمات الجهل والتَّعَصُّب والشّتات والتَّفرُّق والطغيان إلى نور الإسلام وضياء الإيمان، فكانت بذلك خيرَ أمَّة أُخْرجت للنَّاس.

إنَّ النَّاظرَ في أحوال العرب قبيل الإسلام وما فيهم من جاهلية وخشونة وقسوة الطِّباع والنُّعرات القبلية والاستماتة في عبادة الأوثان والظلم والفواحش والطغيان وطاعة الجان والكهَّان وتقديس التَّقاليد وموروث الآباء والأجداد من غير تأمُّل ولا برهان، لَيَعْجَبُ؛ كيف تحوَّلت كل هذه الأخلاق السيئة والطباع القاسية الجافة الخشنة والعصبيات المنتنة والجاهلية الجهلاء وتبدَّلت في عقدين ونيف، فصارت أمَّةً ذات عمران أخوي ومجتمع أخلاقي ومبادئ سامية وأخلاق عالية ...

لقد كانت أخلاق رسول الله ﷺ قرآنية، كيف لا وهو يمتثل أمر ربه: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: 199]؛ قال عبدُ الله بنُ الزُّبير: أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس؛ أي تحث على العفو والتسامح فيما

يظهر من أخلاق الناس[35]. وهو ﷺ القائل: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»[36]. وهو ﷺ القائل: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء»[37] ... ومن لا رحمة في قلبه لا إيمان له، والمؤمن بمجرد وقوفه على هذه الآداب النبوية والأخلاق المحمدية يبذل كل جهده ليتأسى بنبيه ﷺ في أخلاقه عامة وفي رحمته بأمته والمذنبين منها والمخطئين خاصة.

ولقد أوتي المسلمون اليوم من هذا الباب، ولم يصبهم ما أصابهم إلا بسبب الإخلال بجانب الاقتداء برسول الله ﷺ، والأخذ بهديه، واتباع سنته، ومحبته وطاعته.

لقد اكتفى بعض المسلمين بقراءة سيرة رسول الله ﷺ العطرة في المناسبات والاحتفالات؛ دون الوقوف معها، والاهتداء بهديها وتطبيقها في الحياة.

في حين اكتفى آخرون بالعكوف على جوانب جزئية منها، دون الاهتمام بأخلاقه ﷺ وآدابه وحسن معاملته للناس -مسلمين وغير مسلمين-، ورفقه وسماحته وعفوه وعدله وتواضعه وزهده ورحمته بأمته، وتفاؤله واستبشاره، وحبه الخير للناس ... فلم يكن فحاشا ولا طعانا ولا سبابا، ولا متنطعا، ولا مغرورا متكبرا، ولا خائضا في أعراض الناس -ولو كانوا مذنبين- ولا متتبعا لعثراتهم، ولا يشير بإصبع الاتهام إلى أحد.

وكل هذا راجع إما لجهلهم بأن الاتباع والتأسي والاقتداء به في أخلاقه وآدابه وعباداته ومعاملته وحسن معاشرته من لوازم محبته، وإما لعدم إدراكهم مواضع الاقتداء من سيرته ﷺ.

5. **فهم آي القرآن الكريم**: ليس الغرض من دراسة السيرة النبوية والبحث فيها مجرد سرد الوقائع التاريخية، والوقوف على ما طرف من قصصها، وليس شأنها شأن الاطلاع على سيرة ملك من الملوك أو أمير من الأمراء في الحقب

35- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة الأعراف، ح4367.

36- سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب الرحمة، ح4942، قال الألباني: حديث حسن. مسند أحمد بن حنبل، 539/2.

37- سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب الرحمة، ح4941، قال الألباني: حديث صحيح. سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب: رحمة المسلمين، ح1924.

التاريخية السالفة. وإنما شأن السيرة العطرة المعطرة أعظم وأجل من أن تحصر في زاوية ضيقة ثم ينتهي الأمر، فالغرض منها وشأنها أن يتصور كل مسلم الحقيقة الإسلامية في مجموعها متجسدة في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ، حتى يدرك أن لا قوام لهذه الحياة ولا مساك لها إلا بالتلبس بها؛ إذ هي أساس الحياة السعيدة، والعيشة الهنية في الأولى والآخرة، وهي طريق الرقي في مدارج السمو والكمال.

وإن اختزال السيرة النبوية في حادثة تاريخية مضت، أو في حقبة زمنية غابرة، إخراج لها من مد الحياة، وإيقاف لمفعولها وعطائها، وعزل لها عن الكثير من ضروريات الحياة.

إن السيرة النبوية هي التجسيد الحي لأحكام القرآن ومبادئه، وإن سيدنا رسول اللهﷺ هو أول مبلغ عن ربه، وأعظم من فهم ما أنزل إليه من ربه وفسره؛ نقرأ تفسيره في أعماله وأقواله وتقريراته، ونفهم القرآن الكريم من خلال حياته العملية والدعوية كلها والجهادية والتربوية، فكانت حياته كلها ترجمة فعلية حية وتفسيرا عمليا للقرآن الكريم، فكان صلوات الله عليه وسلامه كما قالت عنه الصِّديقة بنت الصِّدِّيق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: « كان خلقه القرآن »[38].

ففي السيرة النبوية بيان لكثير من معاني القرآن الكريم؛ كتلك الآيات التي تحدثت عن الغزوات النبوية، كسورة آل عمران والأنفال والتوبة والأحزاب والفتح والحشر ...، كما أن في دراسة السيرة النبوية بيان لكثير من أسباب النزول التي تساعدنا على فهم النص القرآني؛ كتلك الآيات التي تنزلت عقب كل حدث أو سؤال. وحتى تفهم هذه الآيات القرآنية جيدا لا بد من دراسة السيرة النبوية لكونها التفسير العملي للقرآن. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44].

38- الأدب المفرد للإمام البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط3: 1409هـ- 1989م، ص115.

كما تحدد لنا السيرة النبوية أسباب ورود الكثير من أحاديثه ﷺ الشريفة، وتاريخ أقوال سيدنا رسول الله ﷺ وأفعاله وتقريراته التي كانت عقب أحداث متنوعة كالهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وغزواته وسراياه ... وبهذا يمكننا الجمع بين جملة من أحاديثه التي يبدو لنا أن فيها نوعا من التناقض أو التعارض، أو نرجح بعضها على بعض، أو يكون ذلك وفق سنة الله في التدرج في التشريع، مراعاة لأحوال الناس واستعدادهم.

6. **الاعتبار من تاريخ السيرة**: التاريخ ذاكرة الأمم ومن لا ذاكرة له فلا حاضر له ولا مستقبل، والتاريخ يعيد نفسه، ومشكلات الأمة متكررة ولا تعالج إلا بما عولجت به زمن النبوة والخلافة الراشدة «لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».

هذا فضلا عن أن لدراسة السيرة النبوية أهمية خاصة في حياة الأمة المسلمة؛ لأنها تعينها على فهم طبيعة الرسالة القرآنية، وتحقيقها على أرض الواقع، فالإسلام جمع بين النظرية والتطبيق، وسيرة رسول الله ﷺ خير شاهد على إمكانية تطبيق النصوص تطبيقا واقعيا ... أما النظريات فقد حدثت بينها وبين التطبيق العملي فجوة بل يستحيل تطبيقها على أرض الواقع إلا الإسلام.

7. **صياغة الحياة وبناء الشخصية المسلمة**: إن دراسة سيرة سيدنا رسول الله ﷺ في عصرنا هذا «ضرورة كضرورة المنقذ بالنسبة للغريق الموشك على الهلاك، يملي تلك الضرورة الواقع المتردي البئيس الذي تعيشه الأمة العربية والإسلامية والإنسانية جمعاء، تمد أيديها لمن ينتشلها من الخطوب والأزمات، ولا من منقذ.

ما أشبه حياتنا في بعض جوانبها بحياة ما قبل البعثة: القوي يأكل الضعيف ويستعبده، المرأة تشتغل في سوق النخاسة المعاصرة ... والتعامل بالربا فاش في معاملات الأفراد والبنوك والشركات وبين الدول.

فما أحوجنا إلى أن نفيء إلى ظلال الإسلام والاحتماء بشريعة ربنا، وتطبيقها في حياتنا، والامتثال لتوجيهات رسولنا ﷺ، إن أردنا العز والظفر

والكرامة »[39].

فأمتنا المسلمة اليوم في أمس الحاجة لدراسة السيرة النبوية والنهل من ينابيعها، والسير على منهاجها، والتمسك بمبادئها الرفيعة، وجعلها منطلقا لتربية الفرد وإصلاح المجتمع.

فللسيرة النبوية، وأخلاق رسول الله ﷺ، وجهاده، « ومعالم نبوته، ومعجزاته، وفضائله الدور الأول في بناء الإنسان وتوجيهه للخير، وربطه برب الأرض والسماء، وتبصيره بالمفاهيم والحقائق العليا بعد شرود وضياع، وانحراف واعوجاج »[40].

ومن فوائدها إحياء ذكرى رسول الله ﷺ في القلوب، ومعرفة أحواله وأفعاله وأخلاقه وصفاته، وكيف عالج رسول الله ﷺ واقع أمته، وغيَّر المجتمع من جاهلية إلى إسلام، ومن مجتمع العصبية والحمية والتنازع إلى مجتمع المحبة والأخوة والتعاون.

وبالتعرف على سيرته ﷺ الطاهرة ودراستها يزداد المرء إيمانا ويقينا بصدقه لدلائل نبوته ﷺ ومعجزاته، ويشتاق إلى حبيب الله المصطفى ﷺ بوقوفه على المواقف الخالدة في سيرته العطرة، ويتعلق بشخصه الكريم بدراسته لشمائله الكريمة وخصاله الحميدة.

8. **التقرب إلى الله تعالى:** إن دراسة سيرة سيدنا رسول الله ﷺ العطرة وذكره والصلاة عليه عبادة وقربة: قال الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: 56]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ

39- السيرة النبوية فوائدها وأشهر مصادرها، عبد العزيز فارح، مجلة السنة النبوية، العدد الثالث، أبريل 2003، ص91-92.

40- إتحاف أهل الوفا بتهذيب كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للإمام القاضي عياض اليحصبي، تهذيب: الشيخ عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية، انظر مقدمة المهذب، بيروت، ط1، 1421-2000، ص7.

عَشْرًا»[41].

وعليه فدراسة السيرة العطرة ومعرفتها والوقوف عليها من أوجب الواجبات، يقول الإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت774هـ) -رحمه الله-: «وهذا الفن مما ينبغي الاعتناء به، والاعتبار بأمره، والتهيؤ له، كما رواه محمد بن عمر الواقدي عن عبد الله بن عمر بن علي عن أبيه سمعت علي بن الحسين يقول: كنا نعلم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن. قال الواقدي: وسمعت محمد بن عبد الله يقول: سمعت عمي الزهري يقول: في علم المغازي علم الآخرة والدنيا»[42].

وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص -رحمهم الله- قال: «كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله ﷺ ويعدها علينا، ويقول: هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها»[43].

قال الإمام السهيلي -رحمه الله-: «فهذه جملة تشرئب إلى معرفتها أنفس الطالبين، وترتاح بالمذاكرة بها قلوب المتأدبين، وكل ما كان من باب المعرفة بنبينا عليه السلام ومتصلا بأخبار سيرته مما يونق الأسماع ويهز بأرواح المحبة الطباع والحمد لله على ما علم من ذلك»[44].

المبحث الثالث: مناظير دراسة السيرة النبوية

تميزت سيرة سيدنا رسول الله ﷺ العطرة بعطائها المتجدد على مر الأزمنة والعصور، فهي تفيض بالخير والبركة على الأمة المسلمة، وتشرق بشمسها على

41- صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ، (ح408).

42- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير، دار الفكر، 1407هـ-1986م، 242/3.

43- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أبو بكر أحمد بن علي ابن الخطيب البغدادي، تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، 195/2.

44- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1: 1421هـ-2000م، 136/3.

ثغر هذا الكون الباسم، وتنشر عبيرها في الآفاق، وهي دستور الحياة، ونموذج رفيع للسلوك الذي ينبغي أن تسير علية أمة الإسلام، وصورة مثلى للقيم الفاضلة التي تنفع الأمة وتكشف عنها الغمة.

هذا علاوة على أن السيرة النبوية مفتاح للتاريخ الإسلامي، فهي أجدر العلوم الإسلامية بالدراسة والبحث والتأليف لتقديمها في صورة ناصعة البياض؛ باعتبارها التفسير التطبيقي للقرآن الكريم، والتجسيد الحي للإسلام وأحكامه وتعاليمه؛ وقد استوعبت سيرة رسول الله ﷺ، جميع أصول الحالات التي يحتاجها البشر في حياتهم وبعد مماتهم؛ ومرت حياته رسول اللهﷺ، بأحوال مختلفة: قبل أن يوحى إليه، ثم بعد البعثة في المرحلة المكية حيث حالة الاستضعاف والاضطهاد والصبر وتحمل الأذى وقلة الناصر ...، لكن في هذه الفترة تم تربية ذلك الجيل القرآني على تصحيح العقيدة والمحبة وترسيخ الإيمان في القلوب، والإعداد النفسي لاقتحام العقبات الكأداء وتحمل مشاق الطريق ومسؤوليات المستقبل ومواجهة المحنة ... حتى تم تجاوز ذلك بالهجرة إلى المدينة المنورة؛ حيث تم بناء دولة الإسلام ومجتمعه لنشر الدعوة وخدمة الأمة وإنقاذ الناس من ربق الجاهلية ... وبعدها تم تشريع القتال في سبيل الله ومقارعة الأعداء من كفار قريش وقبائل العرب في الخارج ومواجهة المنافقين واليهود في الداخل، ثم اكتمال التشريعات وإتمام النعمة على المسلمين، والمسارعة في تنفيذها بكل إخلاص وفي أعلى وأكمل مستويات التنفيذ والأداء بإحسان وإتقان، ثم الوداع والتحاق الحبيب المصطفى ﷺ بالرفيق الأعلى.

ونظرا للمكانة التي تحظى بها السيرة النبوية في حياة المسلمين؛ فقد اشتغلوا بتدوينها منذ القرون الأولى؛ فسجلوا وقائعها وحرصوا على نقلها نقية من كل الشوائب وموثقة بأسانيدها؛ سواء في كتب الحديث أم في كتب المغازي والسير أم في كتب الدلائل والشمائل أم في كتب التاريخ العام.

كما اشتغلوا بدراستها بمناهج مختلفة باختلاف التخصصات والأزمان؛ فلأهل الحديث منهج يتسم بدراسة الأسانيد والتحري في نقل الروايات المنسوبة إلى رسول الله ﷺ، وللمؤرخين وكتاب السير منهجهم الذي يشبه منهج المحدثين

ولغيرهم مناهج أخرى ... وستظل سيرة رسول الله ﷺ العطرة معينا لا ينضب مهما تزاحم على منبعها الواردون، ونهل منها الناهلون.

ولله در الصحابي الجليل كعب بن زهير ﷺ (ت26هـ) القائل في القصيدة الموسومة بـ: (بانت سعاد):

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

ونظرا لمكانة السيرة النبوية في قلوب المسلمين وفي حياتهم، أولى لها علماء الإسلام الأئمة الأعلام والمشايخ الموفقون الكرام اهتماما بالغا؛ حيث تعدد التصنيف فيها ما بين سيرة مستقصاة جامعة متصلة الإسناد بصاحب الشريعة الغراء، وأخرى مهذبة مقتصرة على المهم من أحداثها: كسيرة ابن هشام (ت218هـ)، وثالثة شارحة لغريب ألفاظها ومعاني روايتها والتعريف بأعلامها: كالروض الأنف لأبي القاسم السهيلي (ت581هـ)، وشرح غريب السيرة النبوية للإمام أبي ذر الخشني (ت604هـ)، ورابعة مختصرة مرتشفة الضرب من معين أحداثها مقتصرة على المراد: كجوامع السيرة للإمام ابن حزم (ت456هـ)، والدرر في اختصار المغازي والسير للإمام ابن عبد البر (ت463هـ)، وخامسة نظمت فيها أحداثها نظما تيسيرا لحفظها ووعيها: كالدرة الخطيرة في مهم السيرة للإمام عبد السلام بن الطيب القادري الفاسي (ت1110هـ)، وسادسة متنوعة اعتنت بذكر أوصافه ﷺ الخَلقية والخُلقية، أو استقصت دلائل نبوته الشاهدة على صدق رسالته، أو ذكرت فضائل حضرته الشريفة ككتاب تلقيح العقول في فضائل الرسول ﷺ للإمام أبي عبد الله محمد بن محمد التميمي البصري (توفي أوائل القرن السادس الهجري)، أو تناولت خصائصه الفريدة وحقوقه على الأمة، وسابعة مختصة في مولده الشريف كالتنوير في مولد السراج المنير للإمام أبي الخطاب عمر بن حسن ابن دحية الكلبي (ت633هـ)، وكتاب الدر المنظم في مولد النبي المعظم ﷺ للحافظ أبي العباس أحمد بن القاضي العزفي اللخمي (ت633هـ) بدأه وأتمه ولده أبو القاسم محمد (ت677هـ)، وكتاب الإعلام فيما يجب على الأنام في مولد المصطفى عليه السلام للإمام المفسر محمد بن أحمد القرطبي (ت671هـ)، وثامنة تناولت الجانب الفقهي للسيرة كزاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية،

وفقه السيرة لسعيد رمضان البوطي وغيرهما، وتاسعة مركزة على حركيتها ودروسها في الدعوة والسياسة والقيادة ...؛ لاستيعابها لدقائق الحياة وتفاصيلها ومعالمها، وقسماتها، كالمنهج الحركي في السيرة النبوية لمنير الغضبان، والرسول ﷺ لسعيد حوى، والأعمال السياسية السلمية للنبي ﷺ والأحكام المستنبطة منها لمصطفى الغزاوي، والتراتيب الإدارية لمحمد عبد الحي الكتاني (ت1382هـ)، ومجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة لمحمد حميد الله الحيدر آبادي الهندي (ت 1424هـ)، والتفسير السياسي للسيرة النبوية لرواس قلعجي، والتربية السياسية في السيرة النبوية لمنير الغضبان وغيرها.

وإن اختلفت هذه المصنفات في الأكل، لكنها تسقى بماء واحد، وتستمد من معين واحد، وتقتبس من مشكاة واحدة.

يقول المستشرق مرجليوث: « إن الذين كتبوا في سيرة محمد [ﷺ] لا ينتهي ذكر أسمائهم، وإنهم يرون أن من الشرف للكاتب أن ينال المجد بتبوئه مجلسا بين الذين كتبوا في السيرة المحمدية »[45].

لكن الجانب الذي أغفل في التعامل مع السيرة النبوية العطرة هو السنن الربانية التي هي بمثابة قوانين بثها الله في هذا الكون والحياة تسير عليها حركية التاريخ والمجتمعات.

يقول الدكتور أكرم ضياء العمري: « ويكفي أن القارئ لدراسة حديثة في السيرة لا يكاد يحس فرقا مهما بينها وبين كتاب سيرة ابن هشام أو زاد المعاد على تباين أسلوب ومنهج الكتابين، رغم التطور الهائل في الدراسات الاجتماعية في العصر الحديث. وما تقدمه العلوم الحديثة من معطيات ضخمة تخدم الدراسات الاجتماعية، وللأسف فإننا نعيش على حافة العلم الحديث، ولم نجرؤ على اقتحامه لنفيد من معطياته الثرية المتنوعة، مع أن ما ورثناه من أسلافنا في حقل التأليف التاريخي أعظم بكثير مما ورثه المؤرخون الغربيون عن أسلافهم.

وإذا كان النقد التاريخي يبدو ضعيفا في دراساتنا، فإن التحليل للروايات

45- الرسالة المحمدية، سليمان الندوي، دار الأمان، القاهرة، ط1995م، ص83.

والتعامل معها يبدو أكثر قصورا؛ بسبب النظرة التجزيئية للقضايا، والسطحية في التعامل مع الروايات، وعدم وضوح التصور الإسلامي لحركة التاريخ ودور الفرد والجماعة والعلاقات الجدلية بين القدر والحرية وقانون السببية والربط بين المقدمات والنتائج، فضلا على أن الكتب التاريخية القديمة لا تمدنا بمنحى واضح في التحليل والتصور الكلي بسبب اعتمادها على سرد الروايات فقط؛ إذ قلما يشير المؤرخ الإسلامي القديم للسنن والنواميس والقوانين الاجتماعية التي تحكم حركة التاريخ، رغم أن القرآن الكريم لفت نظر المسلمين إلى ذلك كله بوضوح. بل إن أحدا من مؤرخي الإسلام لم يحاول إعادة صياغة النظرة القرآنية للتاريخ وتقديم الوقائع والتطبيقات والشواهد التاريخية عليها بشكل نظريات كلية حتى وقت متأخر عندما كتب ابن خلدون مقدمته، رغم أن المفكرين المسلمين تعاملوا مع الفلسفة والمنطق منذ القرون الأولى وأفادوا منها في بناء علوم اللغة وأصول الفقه بوضوح، وتصرفوا في ذلك بعقليتهم اليقظة التي تنفي ما يناقض المعتقد الإيماني والتصور الإسلامي، ونجحوا في ذلك إلى حد كبير، وكان نجاحهم في تخطي التجربة يرتبط بمدى وضوح العقيدة وصفائها في عقولهم»[46].

ولقد أشار الدكتور أكرم العمري إلى ملاحظة مهمة جدا فالرؤية التي تنقصنا اليوم في علاقتنا مع السيرة النبوية هي الرؤية السننية التي تجعل علاقتنا بالسيرة علاقة معرفية واقتدائية وروحية وسلوكية وتسخيرية أكثر أصالة وعمقا وفعالية، للاستفادة من السيرة النبوية والاستمداد منها على أكمل وجه وأحسن صورة.

وقد حاولت أن أولي لهذا المنظور المهم في كتاب (السنن الإلهية في السيرة النبوية)، وكتاب: (نحو قراءة جديدة للسيرة النبوية: سنة الله في جهاد رسول الله ﷺ)، وكتاب: (العبر من سيرة خير البشر ﷺ).

من هذه المناظير المختلفة والرؤى المتنوعة والزوايا المتعددة تحركت عناية المسلمين بالسيرة النبوية العطرة، باعتبارها حركة تجسيد أنموذجي لحقائق القرآن الكريم في واقع الحياة بصورة شاملة وكاملة ودقيقة، توفر شروط التأسي

46- السيرة النبوية الصحيحة، مركز بحوث السيرة والسنة النبوية، قطر، ط: 1991م، 14-15.

والاقتداء المطلوب والتسخير على الوجه الأكمل لبناء الإنسان والمجتمع والأمة والعمران.

المبحث الرابع: معالم المنهاج السنني لدراسة السيرة النبوية

تمثل السيرة النبوية الأنموذج التاريخي الأمثل الذي لم يتعرض للتحريف والتزوير، ولم تنطلي عليها أساليب المستشرقين، ولم يخرجها عن مقاصدها وأهدافها انتحال المبطلين. ومن ثم فهي معين لا ينضب، ومنبع خير لا ينقطع ... ولازال الكتاب والباحثين والعلماء الجهابذة يتوقفون عند سيرته ﷺ العطرة فيستخرجون منها الدرر والجواهر والدروس والعبر والسنن السائرة على سائر البشر.

وقد تحقَّقت السِّيادةُ للرعيل الأوَّل النموذج الخالد جيل الصحابة ﷺ عندما صَدَقوا في التَّأسِّي بسيدنا الرَّسول ﷺ ومتابعته في صغير الأمر وكبيره، وفي السير على منهاج السنن الإلهية في الحياة؛ فتمكَّنوا من التَّطبيق الواقعيّ لآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، فكانوا خير القرون، وفضلوا على سائر الناس.

ولابُدَّ لاستئناف الحياة الإسلاميَّة الصَّحيحة، وتحقيق ما حققوه من إنجازات عمرانية وفتوح للبلدان والقلوب، من السير على منهاجهم في معرفة تجليات السنن الربانية في السيرة النبوية في كل مراحلها وأبعادها، وتمثلها في الحياة على مختلف مستوياتها، وفي كل المواقع والنَّواحي، وأن تكون دراستُنا للسِّيرة النَّبويَّة العطرة بهذه المعاني العميقة والنَّظرة الثاقبة الشَّاملة، والفقه الواقعي الواعي؛ حتى تعود للأمة عزتها وكرامتها وتكون بحق أمة الخيرية وقائدة الأمم.

وعليه، فإن من أهم مقاصد دراسة السيرة النبوية الوقوف على السنن الإلهية التي سلكها النبي ﷺ وساعدته في إحداث ذلك التحول التاريخي الضخم في المجتمع العربي أولا، ثم في العالم بعد ذلك بسرعة مذهلة، حتى تنتفع بها الأمة في مسيرتها العمرانية المستقبلة، وتأخذ بها في سبل الحياة.

وهنا يمكن القول أن خير ما بذلت فيه الجهود، وأنفقت فيه الأموال، وشغلت به الساعات والأيام؛ هو البحث في السيرة المحمدية الخالدة ودراستها،

واستنباط ما فيها من السنن الربانية الجارية، وهذا له أهمية كبيرة في حياة الأمة.

وعجيب أن يجهل المسلمون ما لهذه السيرة العطرة من الأهمية في حياتهم اليومية، وفي الرقي والازدهار إن اعتبروا بعبرها، وأخذوا بدروسها واستناروا بسنن الله فيها.

فلا غَروَ أن سيرة سيدنا محمد ﷺ سراج الفضيلة في سبل الحياة، وتعاقب الأجيال، فهي تشكل الدعامة الرئيسة لحركة التاريخ العظيم الذي يعتز به المسلمون على اختلاف أجناسهم ولغاتهم، والحاجة إليها تتجدد على الدوام.

وعليه؛ فبالتولي شطر السيرة النبوية دراسة وتطبيقا واقتداء ومنهاجا في الحياة يحقق المسلمون ما تعجز عن تحقيقه الأمم الراكضة وراء سراب الشهوات الفانية، والملذات الزائلة، والمطامع النفسية.

فهي تجربة غنية فيها من الدروس والعبر ما لا يعد ولا يحصى، فهي زاخرة بدلالاتها، متنوعة بمعطياتها، ومهمة بوقائعها؛ إذ هي عطاء مفتوح بابه على مصراعيه لكل زمان ومكان، خالدة بقيمها وسنن الله فيها، إنها كنز الدروس والعبر، ومدخر القيم التي تنبض بالنور، تهدي للتي هي أقوم، وترشد إلى الطريق السوي، وتضع معالم النجاة أمام الناس وترسم لهم طريق الله المستقيم ... فما كان لباحث يسعى إلى إيفائها حقها من البحث والتحليل، إلا أن يوسع نطاق رؤياه ويصب اهتماماته على سنن الله فيها، ليجعلها منارات يهتدي بها في ظلمات الحياة، حتى لا يسقط في مهوى الهلاك والخسران.

وبكلمة جامعة؛ إن دراسة السيرة النبوية من زاوية السنن الربانية تطوي لنا المراحل في استشراف مستقبل الأمة الزاهر الذي بشرتنا به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.

أضف إلى هذا أن البحث المفيد في السيرة النبوية يحصل حين تدرس على أنها التطبيق العملي للسنن الربانية التي يمكن أن تتكرر ظروفها في كل زمان ومكان، وحين تجرد من قيود الزمان والمكان لتجيب على أسئلة العصر ومعضلاته، ولا يتحقق هذا إذا درسناها على أنها أحداث تاريخية ومعارك حربية

فريدة ابتدأت بالبعثة وانتهت بالوفاة، ولو كان الأمر هكذا ما حثنا الله تبارك وتعالى على التأسي بحبيبه وصفوة خلقه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: 21].

ولدراسة أحداث السيرة النبوية والأيام المحمدية الخالدة أهمية قصوى؛ إذ من خلالها نقدم العلاج الشامل لمجموعة من الأدواء التي أصابت الأمة الإسلامية، من خلال الدراسة السننية التي توصل إلى السر الذي جعل من أحداث السيرة النبوية وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة، موصلة بالسماء.

والحاصل أنه بالسير على المنهاج المحمدي في الأخذ بالسنن الربانية في التربية والدعوة والجهاد وبناء الإنسان والمجتمع والأمة والعمران تحقق الأمة عزتها وتعود لها مكانتها، ويتحقق وعد الله عز وجل وموعود نبيه المصطفى ﷺ بانتشار نور الإسلام في العالمين.

لن نكتفي -كما يفعل بعض الناس- بتتبع السنة النبوية في بعض الجزئيات ونسمي أنفسنا سنة، ثم بعد ذلك نتيه في أودية الغفلة والقعود والركود والاستسلام للواقع المرير. لن نكون على مستوى يرضي ربنا تبارك وتعالى ويرضي حبيبه المصطفى -صلوات ربي وسلامه عليه- إن لم نقتد بسيرته العطرة وسيرة أصحابه معه ونحذو حذوهم ونقتفي أثرهم، ونسير وفق سنن الله في هذا الكون كما ساروا، ونفقه كنهها كما فقهوا.

فما كان النبي ﷺوأصحابه الميامين ﷺيحدثون أنفسهم أن تنجح الدعوة الإسلامية ويبنى صرح جماعة المسلمين وتنتصر هذه الجماعة وينتشر نور الإسلام في ربوع الأرض وهم قعود في عقر دارهم، بل كانوا على دراية تامة بسنن الله الماضية في خلقه التي لا تقبل التبديل ولا التغيير، وأن للرقي والنصر والتمكين أسبابه، وللهزيمة والتخلف والهلاك أسبابه كذلك، فكانوا موطدي العزم على الجهاد في سبيل الله وعلى التؤدة، لأن النصر والتمكين والرقي يأتي بالأخذ بسنن الله تعالى كما جاءت في القرآن الكريم، وكما طبقها سيد الوجود ﷺ وأصحابه الكرام من بعده ﷺ!

وإن الحقيقة التي لا تقبل التمويه أن استنباط السنن الربانية من السيرة النبوية يبين لنا كيف تجري السنن الربانية على البر والفاجر وعلى المسلمين وغير المسلمين حتى تستقيم لنا الرؤية من زاوية قرآنية، لنعالج مآسي الأمة وجراحاتها، وما حل بدارها من الويل والثبور وعظائم الأمور.

وإن الحاجة تشتد اليوم لدراسة السيرة النبوية وفق هذه الرؤية السننية الشمولية المتكاملة المستخلصة من القرآن الكريم والسنة النبوية، هذه الرؤية التي جعلها الله سبحانه وتعالى بين يدي البشر لتفسير حركة التاريخ والمجتمع وبناء الإنسان والعمران، هذه الرؤية التي لخصها التطبيق العملي المتمثل في السيرة النبوية، فتكامل المشروع النظري مع التطبيق العملي في أبعاده الفردية والاجتماعية معا.

ومن منطلق الرؤية التسخيرية والصيرورة الحضارية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض المنسجمة مع فطرة الوجود الكوني والإنساني تركيبا ووظيفة يجب أن تدرس وتقرأ السيرة النبوية العطرة وتحلل أحداثها ووقائعها.

فالهدف الأساس لتجديد مناظير دراسة السيرة النبوية هو البحث عن النظرية الكلية القرآنية لتفسير حركة الوجود والحياة، وكيف تجلت هذه النظرية الكلية في السيرة النبوية باعتبارها حقلا خصبا وساحة فعلية تجسدت فيها حقائق هذه النظرية السننية المتكاملة، التي من شأنها أن تحول العلاقة السردية الحرفية الجزئية لتعاملنا مع السيرة إلى علاقة مقاصدية سننية منضبطة مفيدة ونافعة في العاجل والآجل.

المبحث الخامس: تطبيقات القراءة السننية في السيرة النبوية

إن السنن الإلهية التي جعلها الله تعالى لتنظيم سير الحياة كثيرة جدا، حيث غدت أقرب إلى الدليل الذي يرسم منحى عاما لاتجاه الحياة الإنسانية، إلا أن قلة قليلة من الناس هي التي تعي السنن المطردة التي تحكم حركة التاريخ والمجتمعات وسير الخلائق، فمن تأمل رحلة التجمع الإنساني منذ آدم عليه السلام إلى الآن يستطيع أن يرسم منحى عاما لهذا السعي البشري في إعمار الأرض

وتنظيم شئون الحياة، وهذا المنحى له نقاط بارزة كأنها مؤشرات ومنارات على الطريق الشاق للتجمع الإنساني، هذه النقاط هي السنن الربانية التي لا تتبدل ولا تتغير.

ورحلة الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإلى دين الإسلام من لدن آدم إلى سيدنا محمد ﷺ قد احتضنت بين جناحيها التطبيق العملي لهذه السنن الربانية، لكن سيرة الأنبياء والرسل السابقين قد تعرضت للتحريف والتبديل على يد الأحبار والرهبان، لكن خلد الله تبارك وتعالى الكثير من قصصهم مع أقوامهم ودعوتهم إياهم وأعقبها بسننه فيهم ... لكن تبقى سيرة رسول الله محمد ﷺ محفوظة بكل تفاصيلها وجزئياتها ودقائقها مما شاب سير السابقين، فهي تجسيد حي للتطبيق العملي للسنن الربانية، فمن تأمل سيرة رسول الله ﷺ وحياته وتصرفاته وأيامه الخالدة منذ البعثة النبوية وإلى التحاقه بالرفيق الأعلى تطبيقا عمليا حيا لسنن الله تعالى، مما يؤكد أن الإسلام ليس دينا يضمن أنصاره به الآخرة فحسب، وإنما منهاج يحكمون به الدنيا، ويجددون به الحياة، ويدفعون به الباطل، ويبنون به أنفسهم ومجتمعهم ودولتهم وأمتهم، ويحققون به ازدهار العمران البشري واستمراره وتقدمه.

ولهذا فقد كان كل تصرفات رسول الله ﷺ تطبيقا للسنن الربانية وامتثالا لها، كما كان ﷺ يرشد أصحابه إلى سنن الله في من سبقهم بالإيمان من أتباع الأنبياء والمرسلين، ليحذوا حذوهم ويقتفوا آثارهم، ويحذرهم من السير على سنن المكذبين والظالمين والمنكرين ليبتعدوا عنها ويجتنبوها، ويبين أسباب مرض الأمم السابقة وهلاكها وحلول عقاب الله فيها، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة إذا ساروا على سكة السنن الإلهية.

فاستجاب الصحابة ﷺ لنبيهم ﷺ وبذلوا المساعي والجهود في قراءة القرآن الكريم قراءة تدبرية عملية اكتشفوا من خلالها سنن الله تعالى وتفاعلوا معها، وتعرفوا عليها، وانتفعوا بها في حياتهم، فلم يتمنوا الأمنيات، ولم ينتظروا اختراق العادات، دون بذلِ الجهود والمساعي والأخذ بالسنن.

لقد كان رسول الله ﷺ في كل أموره اليومية وفي كل أحواله في مكة

والمدينة وفي الحرب والسلم، يتدبر سنن الله تعالى، ويتعرّف عليها؛ من أجل تسخيرها في خدمة دين الله وعباد الله، وعند توقُّف الأسباب المادية يَمُدُّ الله نبيه بما يعطل أثر الأسباب المادية لنبيه الكريم ﷺ، بعد استفراغ الوُسع، وبذل الجهد.

وكان ﷺ في كل معاركه يتعامل مع سنن الله في الأسباب ومسبباتها؛ فيجعل لجيشه مقدمة ومؤخرة وميمنة وميسرة وقائدا، ثم يقبل على الله تعالى ملحًّا في دعائه مبتهلا في رجائه، فهذا نوع من إدراك سنن النصر التي تعتمد على أسباب مادية وأسباب معنوية، وهذا الأخذ بالأسباب في حد ذاته سنة من سنن الله تعالى في الكون.

أضف إلى هذا حديث النبي ﷺ عن اتباع سنن مَنْ قبلنا، وإرشاده لمن يستجديه من الناس إلى سنة الله في الرزق عندما يأمره بأن يذهب فيشتري قدوما ويحتطب، وإرشاده الأعرابي إلى عقل الناقة وربطها عندما قال له: يا رسول الله، أأتركها وأتوكل على الله، قال: «بل اعقلها وتوكل»[47]. كل هذا من الوضوح بمكان باهتمامه البالغ وعنايته الكبيرة بالسنن الربانية.

أضف إلى كل ذلك تحذيره لأمته من سنن الله في الذنوب والمعاصي وسنته في العقوبات خير دليل على التطبيق العملي للسنن الربانية فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: قال أقبل علينا رسول الله ﷺ. فقال: «يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»[48].

47- انظر: سنن الترمذي: 668/3، وقال الألباني حسن، وصحيح ابن حبان: 510/2.
48- سنن ابن ماجة، كتاب الفتن، باب العقوبات، ح4080، قال الألباني: حديث حسن.

ثم تصويره ﷺ للمجتمع الذي يتعاون أهله على البر والتقوى، والذي يتعاون على الإثم والعدوان بقوم في سفينة في قوله ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إن أرادوا الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا»[49]. تصوير دقيق لسنن الله تعالى في الأجسام والمجتمعات، فإذا كانت السفينة يحكمها قانون الطفو فإن المجتمع يحكمه قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكقوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالحمى والسهر»[50]. كقوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[51].

ثم إرشاده ﷺ أصحابه وأمته من بعده إلى سنن الابتلاء وتحمل الأذى صبرا واحتسابا حتى ينال المسلم إحدى الحسنيين أو الحسنيين معا النصر والشهادة: فعن خباب رضي الله عنه قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً، وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً فَقُلْتُ: أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ! فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ فَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ»[52]. واشتمل الحديث على سنن الابتلاء والثبات على الحق، والتمكين لدين الله.

49- صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب (هل يقرع في القسمة والاستهام فيه)، ح2361.

50- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح2586.

51- صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، ح481. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح2585.

52- صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ح3639.

ومن أروع ما يدل على حرص سيدنا رسول الله ﷺ على تفقه أصحابه وأمته السنن الإلهية قوله ﷺ لزياد بن لبيد: بعد أن ذكر شيئا وقال وذلك عند ذهاب العلم، قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرؤه أبناءنا، وأبناؤنا يقرءونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: «ثكلتك أمك يا ابن لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء»[53].

وهذا الحديث الشريف يوضح إرشاد النبي ﷺ لأصحابه إلى أمر السنن الربانية التي تمضي بلا استثناء وتجري قوانينها على الخلائق أجمعين.

فليس المراد من قوله ﷺ: «وذلك عند ذهاب العلم» ارتفاع المعارف والثقافة من الكتب والرءوس؛ بل ارتفاع الارتباط الوثيق بينها وبين السنن الربانية وإحسان التعامل معها والتطبيق العملي لها.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ -طبقا للتوجيهات القرآنية والإرشادات النبوية- يتدبرون القرآن الكريم ويقفون عند سننه، ويقرأون آياته قراءة واعية تمتثل سنن القرآن وتعتبر من دروسه وعبره، وبتدبرهم السنني للقرآن الكريم تفقهوا في سننه وكانوا على معرفة واسعة بها، كيف لا؟ وهم عاشوا مع رسول الله ﷺ كل مراحل التأسي والبناء، والتربية والجهاد، والهجرة والنصرة، والتبليغ والتدافع، والدعوة وبناء الأمة، فتمثلوا منهاج رسول الله ﷺ في التدبر السنني، فانتفعوا بها في حياتهم وفتوحاتهم ودعوتهم، ولقد كان تدبرهم السنن الإلهية والتزامهم غرزها أول أسباب نجاحهم في حياتهم الفردية والاجتماعية وما أكرمهم الله به من النصر والتمكين والاستخلاف في الأرض، وتوحيد الكلمة وجمع الصف، وبناء القلوب، ونشر دين الله تعالى في الأرض.

والذي ميّز هذه المرحلة هو الاهتداء العملي والتأسي برسول الله ﷺ في التفقه في السنن الربانية والتطبيق العملي لها في واقع الحياة، على عكس المراحل

53- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2: 1420هـ-1999م، 149/3.

المتأخرة التي اهتمت بالكتابة في فقه السنن.

وإلا فلو خالفوا السنن الإلهية وتنكبوها لما تحقق لهم كل تلك الانتصارات في ذلك الزمن القصير، حتى صاروا أنموذجا خالدا في تاريخ الإنسانية كلها.

ولذلك لما حل الطاعون بالشام رجع الفاروق عمر ﷺ بالناس ولم يدخلها، فقَالَ له أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ﷺ: «أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ! فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ»[54]. وهكذا كان الفاروق ﷺ فقيها في السنن، وأخذ بسنن الأسباب للحفاظ على الناس من إصابتهم بالطاعون، وهذه نتيجة تدبره السنني للقرآن الكريم.

ولما أمر أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ سعد بن أبي وقاص ﷺ بالرحيل من زرود[55] إلى العراق استعداداً لخوض المعركة الفاصلة مع الفرس وأوصاه بالوصية الآتية: «أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله عز وجل أفضل العدة على العدو، وأقوى العدة في الحرب وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتنا كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ...»[56]. هذا جزء من الوصية العمرية لسعد ﷺ، تبين مدى تفقهه في السنن الإلهية وتدبره السنني للقرآن الكريم، وإدراكه حقيقة سنن الله في النصر والهزيمة والذنوب والمعاصي والطاعات.

ولهذا لما استشهد عمر بن الخطاب ﷺ قال عنه ابن مسعود ﷺ: «مات

54- صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، ح5397.

55- زرود: موضع بطريق مكة بعد الرمل. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع المؤلف: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، عالم الكتب، بيروت، ط3: 1403هـ، 296/2.

56- العقد الفريد، أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1404هـ، 117/1.

تسعة أعشار العلم، فقيل له: أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة؟! فقال: لم أرد علم الفتيا والأحكام، إنما أريد العلم بالله تعالى»، أي العلم بسنن الله تعالى.

والحاصل أن الصحابة الكرام بدورهم كانوا على علم ووعي بهذه السنن الربانية، يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «وإنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من ذكرها. يعني أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب الغربية منهم ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها بما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى، ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسبب سبقهم للأمم التي استولوا عليها، لذلك قال: وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم الفطري المحض، وكذلك كانت علومهم كلها، ولما اختلفت حالة العصر اختلافا احتاجت معه الأمم إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد وغيرها كانت محتاجة أيضا إلى تدوين هذا العلم، ولك أن تسميه علم السنن الإلهية أو علم الاجتماع أو علم السياسة الدينية، سمِّ بما شئت فلا حرج في التسمية»[57].

وهكذا يتضح علم الصحابة الكرام بالسنن الربانية الذي هو من أجل العلوم الإسلامية وأولاها بالحرص والانتفاع، والذي ما فقدت الأمة توازنها اليوم وتكالبت عليها الأمم إلا بعد أن تنكبت هديها وفقدت الاستمداد منها.

أليس كل هذا دليلا كافيا على أن سيرة رسول الله ﷺ وسيرة خلفائه زاخرة بالتطبيق العملي للسنن الربانية التي متى ما أخذت بها الأمة إلا وعادت لها خيرتها وعزتها ومكانتها وصدارتها وقيادتها للأمم ...!

أفلا تحتاج إذن مناهج دراسة السيرة النبوية إلى تجديد لدراستها بهذا المنظور السنني الشمولي المتكامل النافع والمثمر في الدنيا والآخرة!

أوليست سيرة رسول الله ﷺ كنزا لا ينفد لعوامل النهوض والانبعاث والتجديد والإحياء لا تتطلب منا سوى بذل الجهود للكشف عنها والعمل بمقتضياتها!

57- تفسير المنار، 115/4.

خاتمة

على ضوء ما تقدم يمكن تسجيل هذه النتائج:

- إن أغلب التواليف المهتمة بسيرة رسول الله ﷺ قد نحت منحى تقليديا يرمي بثقله في اتجاه سرد الأحداث والوقائع بمعزل عن سياقها العضوي العام المتمثل في سريان تلك الوقائع والأحداث على القانون الكوني العام؛ ولم يلتفت أولئك إلى سنن التسخير والإنجاز العمراني.
- إنه أصبح من أولى الأوليات وأوجب الواجبات دراسة السيرة النبوية العطرة برؤية سننية شمولية ومتكاملة، حتى تستفيد منها أجيال الأمة والإنسانية عامة في هذا العصر لتغيير الحاضر وبناء المستقبل.
- إن السيرة النبوية العطرة قد خُدمت من نواحي متعددة، لكن بالرغم من ذلك فإنها ما تزال بأمس الحاجة إلى خدمات أعمق، وإلى منهج أكثر دقة وانضباطا وإحكاما، ينقل علاقة الأمة بها من علاقة فكرية آلية جامدة جزئية إلى علاقة مقاصدية سننية تسخيرية متوازنة واقتدائية عملية.

وفذلكة القول فإن دراسة السيرة النبوية لا يمكن أن تكتمل صورتها إلا بالرؤية السننية الشمولية المتكاملة.

إن هذا البحث يفتح آفاقا واسعة للبحث في مسألة دراسة السيرة النبوية بمنظار السنن الإلهية وذلك وفق الخطوات الآتية:

- وضع الأسس النظرية للمنظور السنني بين نخبة من المفكرين والباحثين والكتاب المقتنعين بأهميته وفاعليته، وتبنيه كمنهج أنموذجي لدراسة السيرة النبوية.
- استقراء نصوص القرآن المتعلقة بالسيرة النبوية لاستنباط ما فيها من السنن الربانية؛
- استقراء نصوص الحديث المتعلقة بالمغازي والسير لاستمداد السنن الربانية منها؛

- تتبع كليات السيرة النبوية وجزئياتها للوقوف على السنن الربانية فيها.

وختاما: إن الدعوة إلى تجديد دراسة السيرة النبوية العطرة ضرورة في هذا العصر، وتحتاج إلى تكاتف جميع المؤسسات الدينية والبحثية والمؤرخين ومجامع الفقه في العالم الإسلامي.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.